شخصيات تاريخية

٢ ـ تيموستوكل

للأستاذ محمد الشيحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

كان اليونان إذن مهددين فى عام ٤٨٠ ق . م إذ علموا أن أجرزسيس سير جيشه الجرار من قلب آسيا الصغرى وأسطوله الضخم محاذياً السواحل الآسيوية والأوربية المحيطة بمضيق الهيليسبونت لغزو بلاد اليونان ، طامعاً فى أن يقوم بما لم يستطع أن يقوم به أبوه من قبل وهو الانتقام من أثينا بل وإخضاع بلاد اليونان عامة ، فما كان عقله يصدق أن بلاداً صغيرة كبلاد اليونان تجرؤ على أن تقف فى وجه أعظم حاهل على وجه البسيطة حينذاك وهى على ما هى عليه من فرقة وانقسام وتباين واختلاف

وقد اختلف المؤرخون القدماء والمحدثون فى تقدير عدد الجيوش الفارسية واليونانية ، ولكنهم إن اختلفوا فى هذا التقدير نجدهم يجمعون على أن جيش أجرزسيس كان عظيم العدد جداً ، وعلى أن جيش اليونان كان دونه بكثير

جاء الفرس بهذه الجيوش الضخمة ووصلوا إلى شمال بلاد اليونان بعد أن عبروا ما عبروا من بحار ، وجابوا ما جابوا من سهول ووديان ، وتسلقوا ما تسلقوا من تلال وجبال ، وهم واثقون كل الثقة أنهم لا بد غالبون هـذا الشعب بل هذه الشعوب الإغريقية المختلفة على أمرها مقاسين على انقسام اليونان وضعف اليونان وفقر اليونان ، وقد غاب عنهم أن اليونان كانوا يعرفون بلادهم تمام المعرفة ويثقون بقوادهم الذين سيقودونهم إلى النصر لأنهم يدافعون عن أعز شىء فى الحياة وهو الحرية والاستقلال

وكان تيموستوكل على علم بحركات الفرس كلها . لذلك أعد بلاده خير إعداد ، وجهزها بما كانت تحتاج إليه من وسائل الدفاع كبناء الأسوار والجدران ، ومن وسائل الهجوم كالسفن التى عمل على بنايتها لتكوين الأسطول مما جعله يصمد أمام الأعداء ولا يتزعزع أمام هذه الغزوة الجريئة

ويعمل اليونان على توحيد الصفوف والاستعداد لملاقاة الأعداء فيعقدون مؤتمراً هو مؤتمر الجامعة اليونانية الثانى (فى أوائل ربيع عام ٤٨٠ ق . م) وفيه يقررون إرسال حملة للدفاع عن وادى تمبى فى الشمال بعد أن وعدهم سكان تلك الجهة ببذل المعونة والمساعدة لهم ، وسارت الحملة عن طريق البحر وعلى رأسها قائد أسبرطى يساعده فى القيادة آخر أثينى هو صاحبنا تيموستوكل ، ووصلت هذه الحملة إلى تلك الجهة ولكنها لم تجد معونة ولا مساعدة فرجعت بخفى حنين

ويتفق اليونان أيضاً فى هذا المؤتمر على تنظيم خطوط دفاعهم فيجعلونها أربعاً . الأول عند وادى تمبى السابق الذكر ، والثانى عند الترموبيل ، والثالث عند وسط اليونان (بيوسيا وأتيكا) والرابع عند برزخ كورنث ويقررون التراجع عن الخط الأول إلى الخط الثانى وعن الخط الثانى إلى الخط الثالث وهكذا حتى الخط الرابع إذا لم يستطيعوا الاحتفاظ بأى خط من هذه الخطوط

وهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بخط دفاعهم الأول على نحو ما رأينا منذ حين ، لذلك نراهم يقررون ، عند ما علموا بخبر زحف الفرس إلى أواسط بلاد اليونان ، الوقوف عند خط الدفاع الثانى أى عند أراض الترموبيل براً ، وعند رأس « الأرتيميزيون » بحراً ، والنقطتان تكمل كل منهما الأخرى ؛ ويوجهون نحو الأولى حملة برية بقيادة الملك الإسبرطى الشهير ليونيداس ، ونحو الثانية أسطولاً بقيادة رجل اسبرطى هو إريبياد ويساعده فى القيادة تيموستوكل . وقد تلاقى الجيشان جيش الفرس وجيش اليونان عند الترموبيل ، وكان ما كان من أمر هذه المزعة الساحقة التى مُنى بها ليونيداس وأتباعه ، حيث أبيد اليونان كلهم عن بكرة أبيهم فى هذا المكان الضيق بعد أن أظهروا من الشجاعة ما خلد اسمهم على صفحات التاريخ — أما عند النقطة الثانية فقد التحم الأسطولان ، والأسطول اليونانى كامل العدد والعدة ، أما الأسطول الفارسى فقد هبت عليه زوبعة قبل معركة « الأرتيميزيون » ودمرت ما يقرب من ثلثه تقريباً ، لذلك لقى الأسطول اليونانى نجاحاً بادئ الأمر ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام حركة تطويق قام بها جزء من الأسطول الفارسى نحو الجنوب إذ أراد الالتفاف حول جزيرة أيوبيا ليأخذ الأسطول اليونانى على غرة من الخلف ، ولحسن حظ هذا الأسطول نجده يتمكن من الإفلات والنجاة من هذا المأزق

الحرج فيرجع عند خط الدفاع الثالث أي عند وسط بلاد اليونان ، وقد دهش الفرس عند ما رأوا الأسطول اليوناني يتراجع بعد هذا النجاح النسبي الذي ناله ، ولكن اليونان فهموا أن هزيمة جيشهم في الثرموبيل قد قضت على خطتهم الدفاعية وجعلتهم يخافون على قواتهم من الفناء ، من أجل هذا تراجعوا نحو الجنوب لأن هذه هي الفرصة الوحيدة لإنقاذ جيشهم وللاحتفاظ به للمستقبل .

من هذا يتبين أنه لم يكن لثيموستوكل موقف ظاهر واضح في هذه المعارك وعلى الأخص في الحملة البرية الأولى عند أرض تمبي ، وفي الحملة البحرية الأولى عند رأس الأرثيميزيون ، ولكنه بالرغم من ذلك موقف عظيم الخطر والأهمية ، لأنه كان هو الروح الذي يبعث في الجيش الحمية والحماس ، وفي الأسطول الرغبة والإقدام على الهجوم ، إذ كان يقف إلى جانب القائد الإسبرطي موقف المرشد الناصح الأمين الذي يجعل مصلحة بلاده فوق أي اعتبار . وكان هذا القائد الإسبرطي يوافق على آرائه بالرغم مما فيها من خطورة وجرأة ؛ لأنه كان ينصح دائماً بالهجوم ، سائراً على هذا المبدأ الذي أخذ به نابليون من بعده وهو « الهجوم خير وسيلة للدفاع » ؛ وكان إلمامه التام بحالة الفرس وبحالة اليونان خير مشجع له للاقدام على الهجوم ؛ فهو يعلم أن اليونان أقلية في العدد بالنسبة للفرس — ولكنهم أكثرية في نواح أخرى — إذ كانوا أكثر تجانساً من أعدائهم ، (فلم يكن بينهم نفر من الأجانب ، على حين أن جيش الفرس يتكون في أغلبيته من أفراد الشعوب المديدة الخاضعة لهم) وأكثر اتفاقاً فيما بينهم ، فهم يحاربون بطوعهم واختيارهم لأن مثلهم الأعلى هو المحافظة على استقلال بلادهم وإحاطة حريتهم وحرية بيوتهم وعائلاتهم وأراضيهم بسياج من المنعة والقوة . أما الفرس أعداؤهم فإنهم يسيرون بالسياط ويحاربون مجبرين ، لا لتحقيق مثل أعلى وإنما تنفيذاً لرغبة عاهل جبار استحوذ الطغيان منه على فؤاده واستولى الكبر على قلبه وعقله حتى شبه نفسه بالآلهة ، فساق هذه الجموع الزاخرة سوق الأنعام والماشية . ثم إن اليونان بعد هذا وذاك يفوقون أعداءهم في الأسلحة التي كانوا مجهزين بها وفي القيادة التي كانوا يخضعون لها . وإلى جانب ذلك كله كان تيموستوكل على علم تام بحركات الأعداء ، يوقفه عليها هؤلاء الجواسيس ونقلة الأخبار الذين كان يبثهم بين أعدائه مثل هذا الملاح الماهر سكيلياس الذي أتى له بمعلومات عن الأعداء قبل موقعة الأرثيميزيون ؛ فأوقفه على ضعف الروح المعنوية فيهم ، وعلى انعدام المثل الأعلى بينهم ، وعلى عدم الانسجام بين وحداتهم المختلفة ، وعلى التنافر بين عساكر الجيش والأسطول الذين هم من عناصر جنسية مختلفة ، وكذلك على الكوارث التي أصابت الأسطول الفارسي كهذه الزوبعة التي هبت عليه قبل الأرثيميزيون فدمرت أربعمائة سفينة

* * *

ثم يتابع أجوزسيس سيره نحو الجنوب حتى يصل إلى أواسط بلاد اليونان ، وهو لا يحجم عن تخريب ما يلاقيه في طريقه من قرى ومدن ، ولا يتردد عن انتهاك حرمة المعابد والأراضي المقدسة ، ولا يتأخر عن تدمير ما يقابله من محاصيل زراعية أو تماثيل للآلهة ، حتى ألقى الذعر في قلوب بعض اليونان ، فخضعت له البلاد اليونانية الوسطى والشمالية ماعدا مقاطعة أتيكا . وكان من الأشياء المقررة عند اليونان أن يقف الجيش اليوناني عند الجبال التي تفصل بين مقاطعتي أتيكا وبيوسيا للدفاع عن المقاطعة الأولى ، ولكن هذا الجيش تراجع حتى برزخ كورنث ووقف هناك ينتظر ما سيجابهه من حوادث . أما الأسطول فكان هو الآخر معصوباً وجهته نحو الجنوب ، وقائده الاسبرطي يريد به التراجع نحو شبه جزيرة البيلوبونيز للدفاع عنها ، ونحن لا ننسى أن هذا القائد ، وهو إريباد ، اسبرطي يضع مصلحة بلاده فوق كل اعتبار ؛ ولكن تيموستوكل يتمكن بعبقريته وبشخصيته القوية من أن يقف في وجه هذا القائد حتى يتغلب عليه ويوجه الأسطول كما يريد هو لا كما يريد هذا القائد فينجح في تلك اللحظة الرهيبة في حمل اليونان على اتخاذ قرار خطير ، ذلك هو القرار القاضي بأن يقف الأسطول اليوناني عند جزيرة سلاميين ، من أجل هذا رأى اليونان أنهم مجبرون بعد هذا القرار الجديد على أن يرسموا خطة جديدة تضمن التعاون بين الجيش والأسطول للدفاع عن بلادهم وصد الغزاة